أى وهم يتكئون على ثياب ناعمة وفرش رقيقة النسج من الديباج ، ووسائد عظيمة ، و بسط لها أطراف فاخرة ، غاية فى كمال الصنعة وحسن المنظر .

(تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام) أى تعالى ربك ذو الجلال والعظمة والتكريم على ما أنعم به وتفضل من نعم غوال ، ومنن عظام .

وهذا تعليم منه لعباده بأن كل هذا من رحمته ، فهو قد خلق السماء والأرض والجنة والنار ، وعذب العاصين ، وأثاب المطيعين ؛ وآتاهم من فضله ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

سورة الواقعة

هى مكية إلا قوله : « أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » فمدنية ، وعدة آيها ست وتسعون ، نزلت بعد طه .

ووجه مناسبتها ما قبلها :

(١) إن فى كل منهما وصف القيامة والجنة والنار .

(٢) إنه ذكر فى السورة السابقة عذاب المجرمين ونعيم المتقين ، وفاضل بين جنتى بعض المؤمنين وجنتى بعض آخر منهم ، و بين هنا انقسام المكلفين إذ ذاك إلى أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة وسابقين .

(٣) إنه ذكر فى سورة الرحمن انشقاق السماء ، وذكر هنا رجّ الأرض ، فكأنّ السورتين لتلازمهما واتحادهما موضوعا سورة واحدة ، مع عكس فى الترتيب ، فقد ذكر فى أول هذه ما فى آخر تلك ، وفى آخر هذه ما فى أول تلك .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) .

شرح المفردات

وقعت : حدثت ، والواقعة القيامة ، لوقعتها : أى لوقوعها ، كاذبة : أى كذب، ورجت : زلزلت وحركت تحريكا شديدا بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبال ، وبست : أى فتتت وصارت كالسويق الملتوت ، من قولهم بس فلان السويق: أى لته ، وهباء : أى غبارا ، منبثا : أى متفرقا ، أزواجا : أى أصنافا . قال الراغب : الزوج يكون لكل من القرينين الذكر والأنثى فى الحيوانات المتزاوجة ، ولكل قرينين منها ومن غيرها كالخف والنعل ، ولكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادا اه والميمنة ناحية اليمين ، والمشأمة ناحية الشمال ؛ والعرب يتيمنون بالميامن ويتشاءمون بالشمائل ، والمراد أصحاب المرتبة السنية ، والرفعة والقدر ، والسابقون : هم الذين سبقوا إلى الخيرات فى الدنيا ، والمقربون : هم أرباب الحظوة والكرامة عند ربهم .

المعنى الجملى

حين تقع الواقعة ويجىء يوم القيامة لا تكذب نفس على الله فتنكره ، إذ تحقق بالمعاينة وشهده كل أحد ، أما فى الدنيا فما أكثر النفوس المكذبة به ، المنكرة له ،

لأنهم لم يذوقوا العذاب كما عاينه المعذبون فى الآخرة .

ثم وصف هذه الواقعة بأنها تخفض أقواما وترفع آخرين ، وأن الأرض حينئذ تزلزل فيندك ما عليها من جبال وأبنية ، وأن الجبال تتفتت وتصير كالغبار المنتشر فى الجو ، وأن الناس إذ ذاك ينقسمون أفواجا ثلاثة : أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون .

الإيضاح

(إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة) أى إذا قامت القيامة لا يكون لوقعتها ارتداد ولا رجعة كالحملة الصادقة من ذى سطوة قاهر قاله الحسن وقتادة ؛ وقد يكون المعنى ـ ليس فى وقت وقوعها كذب ، لأنه حق لاشبهة فيه .

ثم هوّل شأنها وعظم أمرها فقال :

(خافضة رافعة) أى هى خافضة لأقوام ورافعة لآخرين قاله ابن عباس ، إذ الوقائع العظيمة شأنها الخفض والرفع كما يشاهد فى تبدل الدول من ذل الأعزة وعزّ الأذلة .

وفى هذا إيماء إلى ما يكون يومئذ من حط الأشقياء إلى الدركات ، ورفع السعداء إلى درجات الجنات ، ومن ثم قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : خفضت أعداء الله إلى النار ، ورفعت أولياءه إلى الجنة .

(إذا رجت الأرض رجا) أى إذا وقعت الواقعة تزلزل الأرض زلزالا وتضطرب اضطرابا شديدا طولا وعرضا ، فتندك الحصون والجبال ، وتهدم البيوت والصياصى . قال الربيع بن أنس : ترجّ بما فيها كرج الغِرْبال بما فيه .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا » وقوله : « يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » .

(و بست الجبال بسّا) أى وتفتت الجبال تفتتا وصارت كثيبا مهيلا بعد أن كانت شامخة .

(فكانت هباء منبثا) أى فصارت كالهباء المنبث الذى ذرّته الريح وفرقته . وقال قتادة : صارت كيبيس الشجر الذى تذروه الرياح .

والخلاصة — إن الجبال تزول عن أماكنها حينئذ ، وتنسف نسفا ، وتكون كالعهن المنفوش .

(وكنتم أزواجا ثلاثة) أى وصرتم أصنافا ثلاثة ، وكل صنف يذكر أو يوجد مع صنف آخر يسمى زوجا كالعينين والرجلين ، فكل منهما يسمى زوجا ، وهما معا زوجان ، فهاهنا أزواج ثلاثة لا زوجان .

ثم فصل هذه الأزواج فقال :

(فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة) أى فأصحاب الميمنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ، أىُّ شىء هم فى حالهم وصفتهم وسعادتهم ؟ والمراد أنهم فى حال هى الغاية فى الحسن والكمال .

ولا يخفى ما فى هذا من تفخيم شأنهم ، وتعظيم أمرهم ، وأنهم بلغوا حدا لا يقدر قدره من السعادة .

(وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) أى وأصحاب المشأمة الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، أى شىء هم فى حالهم؟ والمراد أنهم بلغوا الغاية فى سوء الحال.

وقال المبرد : أصحاب الميمنة أصحاب التقدم ، وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر ، والعرب تقول اجعلنى فى يمينك ، ولا تجعلنى فى شمالك ، أى اجعلنى من المتقدمين ولا تجعلنى من المتأخرين اهـ .

أخرج أحمد عن معاذ بن جبل «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ثم قبض بيديه قبضتين وقال هذه فى الجنة ولا أبالى وهذه فى النار ولا أبالى » .

(والسابقون السابقون) أى والسابقون الذين يتقدمون غيرهم إلى الطاعات ـ هم الذين اشتهرت أحوالهم ، وعرفت فخامة أمورهم ، وقد يكون المعنى والسابقون إلى طاعة الله تعالى هم السابقون إلى رحمته سبحانه ، فمن سبق فى هذه الدنيا إلى فعل الخير كان فى الآخرة من السابقين إلى دار الكرامة ، فالجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تدان .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوه بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم » أخرجه أحمد .

(أولئك المقربون. فى جنات النعيم) أى أولئك المتصفون بذلك الوصف الجليل (السبق) هم الذين نالوا حظوة عند ربهم ، وهم فى جنات النعيم ، يتمتعون فيها بما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) .

شرح المفردات

الثلة : الجماعة قلّت أو كثرت ، وقيل الجماعة الكثيرة من الناس كما قال :

وجاءت إليهم ثُلّةٌ خِنْدِفِيَّةٌ بجيش كتيّار من السيل مُزْبِد

موضونة من الوضن وهو : النسج : والولدان : واحدهم ولد ، مخلدون : أى مبقون أبدا على هذه الصفة ، أكواب : أى آنية لاعرا لها ولا خراطيم ، أباريق : واحدها إبريق وهو إناء له خرطوم . قال عدىّ بن الرقاع :

ودعَوْا بالصَّبوح يوما فجاءت به قَيْنَةٌ فى يمينها إبريق

كأس من معين : أى خمر جارية من العيون كما قال ابن عباس وقتادة ، والمراد أنها لم تعصر كخمر الدنيا ، لايصدعون عنها : أى لايلحقهم صداع بسببها كما يحدث ذلك فى خمر الدنيا ، ولا ينزفون : أى ولا تذهب عقولهم بالسكر منها ، يقال نُزِف الشارب إذا ذهب عقله ، ويقال للسكران نزيف ومنزوف ، يتخيرون : أى يختارون ويرضون ، حور : واحدتهن حوراء : أى بيضاء ، عين: واحدتهن عيناء : أى واسعة العينين ، المكنون : المصون الذى لم تمسسه الأيدى وهو أصفى وأبعد من التغير قال :

قامت تراءى بين سِجْفَىْ كِلَّةٍ كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

أو دُرَّة صَدَفِيَّةٍ غوّاصُها بهِجٌ متى يرها يُهِلّ ويسجد

لغوا : أى هُرَاء لاخير فيه ، ولا تأثيما : أى ما يقال حين سماعه وقعتم فى الإثم.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الناس يوم القيامة أصناف ثلاثة : سابقون وأصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة ـ أعقب ذلك بذكر ما يتمتع به السابقون من النعيم فى فرشهم وطعامهم وشرابهم ونسائهم وأحاديثهم التى تدل على صفاء النفس وأدب الخلق وسمو العقل .

الإيضاح

(ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين) أى وهم جماعة كثيرة من سالفى الأمم وقليل من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، و يستأنس لهذا بقوله صلى الله عليه وسلم : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » .

(على سرر موضونة) أى على سرر منسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت ، قال الأعشى فى وصف الدرع :

ومن نسج دَاودُ مَوْضونَة تسير مع الحيِّ عِيراً فعـــيرا

(متكئين عليها متقابلين) أى متكئين على السرر ينظر بعضهم إلى وجوه بعض ، فهم فى صفاء وعيش رغد وحسن معاشرة ، لايوجد فى نفوسهم من الشحناء والبغضاء ما يوجب الافتراق .

ثم ذكر ما هم فيـه من ترف ونعيم ، وأنهم مخدومون فى شرابهم وطعامهم ، مكفيون مئونة ما يريدون فقال :

(يطوف عليهم ولدان مخلدون) أى يطوف عليهم غلمان وخدم على صفة واحدة لايكبرون ولا يتغيرون ، فهم دائما على الصفة التى تسر المخدوم إذا رأى الخادم .

(بأكواب وأباريق وكأس من معين . لايصدعون عنها ولا ينزفون) أى يطوفون عليهم بأداة الشراب كاملة من أكواب وأباريق وخمر تجرى من العيون ولا تعصر عصرا فهى صافية نقية لاتنقطع أبدا ، وهم يطلبون منها ما يريدون ، ولا صداع فى شرابها ، ولا ذهاب منها للعقل كما فى خمور الدنيا .

روى عن ابن عباس أن فى خمر الدنيا أربع خصال : السكر والصداع والقىء والبول ، نزه الله خمر الجنة عنها .

و بعد أن وصف الشراب وصف الطعام فقال :

(وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون) أى و يطوفون بألوان من الفاكهة المختلفة المطاعم ، يختارون منها ما تميل إليه نفوسهم ، و بأنواع من لحوم الطير مما لذ وطاب ، فيأخذون منها ما يشتهون ، وفيه يرغبون .

و بعد أن ذكر طعامهم وشرابهم أعقبه بذكر نسائهم فقال :

(وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون) أى و يتمتعون بنساء بيض مشرقات الوجوه تبدو عليهم نضرة النعيم ، وكأنهن اللآلئ صفاء و بهجة .

ثم ذكر السبب فى متعتهم بكل هذا النعيم فقال :

(جزاء بما كانوا يعملون) أى جازاهم ربهم على ما عملوا ، وأثابهم بما كسبوا فى الدنيا ، وزكوا به أنفسهم من صالح الأعمال ، ونصبوا له بأداء فروض دينهم على أتم الوجوه وأكملها ، فهم كانوا قوّامين لليل ، صوّامين للنهار « كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » .

و بعد أن وصف النساء وصف حديثهم حينئذ فقال :

(لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا سلاما سلاما) أى لا يسمعون اللغو الهُراء من الحديث ولا هُجْر القول وما تتقزز منه النفوس الراقية ، ذات الأخلاق العالية ، ولكن يسمعون أطيب السلام ، وسامى الكلام ، مما يستساغ كما قال سبحانه « تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » .

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا

أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠).

شرح المفردات

السدر : شجر النبق ، مخضود : أى خضد شوكه أى قطع ، والطلح : شجر الموز ، منضود : أى نضد حمله من أسفله إلى أعلاه فليست له سوق بارزة ، ممدود : أى منبسط ممتد لايتقلص ولا يتفاوت ، مسكوب : أى مصبوب يسكب لهم كما يشاءون بلا نصب ولا تعب ، فرش : واحدها فراش كسُرُج وسِرَاج ، مرفوعة : أى عالية منضدة ، عربا : واحدتهن عروب كصبر وصبور ، أترابا : أى متساويات فى السن واحدتهن تِرْب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال السابقين و بين مالهم من نعيم مقيم ، فى جنات النعيم ـ أردف ذلك بذكر حال أصحاب اليمين ، فبين أنهم فى جنات يتخللها السدر المخضود ، والموز المنضد بعضه فوق بعض ، والفاكهة الكثيرة التى لاتنقطع أبدا ، ولا تمتنع عنهم متى شاءوا ، وفيها فرش وثيرة مرتفعة عالية ، ونساء حسان أبكار فى سن واحدة .

الإيضاح

(وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) أى وأصحاب اليمين هم الغاية فى فخامة شأنهم ورفعة قدرهم وعلوّ منزلتهم .

وقد جاء هذا الأسلوب فى كلام العرب لإفادة المبالغة فى مدح أو ذم فيقولون فلان ما فلان .

ثم فصل ما أبهم من حالهم بقوله :

(فى سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب . وفاكهة كثيرة . لامقطوعة ولا ممنوعة) أى هم يتمتعون بجنات فيها السدر الذى قطع شوكه لا كسدر البرّية فى الدنيا ، وفيها الموز الذى ملئ ثمرا ، فلا تظهر له سيقان ، وفيها ظل ظليل يقيهم شديد الحر ووهج الشمس ، وفيها ماء مصبوب لايحتاج أهلها إلى تعب ونصب للحصول عليه ، وفيها ضروب من الفاكهة التى لاتنقطع أبدا ، ولاتمتنع عنهم فى وقت ، فهم يجدونها متى شاءوا وأحبوا .

ثم ذكر ما يتمتعون به من الفرش فقال :

(وفرش مرفوعة) أى وهم يجلسون على فرش وثيرة عاليـة وطيئة لاتتعب الجالس عليها .

و بعدئذ ذكر ما يتمتعون به من النساء فقال :

(إنا أنشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكارا . عربا أترابا . لأصحاب اليمين) أى إنا أعددناهن نساء أبكارا متحببات إلى أزواجهن، إذ هن يحسنّ التبعّل ،كلهن فى سن واحدة ، لاتمتاز واحدة عن أخرى ، وأعطيناهن لأصحاب اليمين .

وأعاد ذكر (لأصحاب اليمين) للتأكيد والتحقيق .

(ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين) أى أصحاب اليمين جماعة من مؤمنى الأمم السالفة ، وجماعة من مؤمنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

و إنما لم يقل فى حق هؤلاء جزاء بما كانوا يعملون كما قال ذلك فى حق السابقين إشارة إلى أن عملهم لقصوره عن عمل السابقين لم يعتبر اعتباره .

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ

مترفين (٤٥) وكانوا يصرون على الحنث العظيم (٤٦) وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون (٤٧) أو آباؤنا الأولون (٤٨) قل إن الأولين والآخرين (٤٩) لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم (٥٠) ثم إنكم أيها الضالون المكذبون (٥١) لآكلون من شجر من زقوم (٥٢) فمالئون منها البطون (٥٣) فشاربون عليه من الحميم (٥٤) فشاربون شرب الهيم (٥٥) هذا نزلهم يوم الدين (٥٦).

شرح المفردات

السموم : حر نار ينفذ فى المسام ، والحميم : الماء الشديد الحرارة ، واليحموم : دخان أسود كما قال ابن عباس وابن زيد ، لابارد ولا كريم : أى لاهو بارد كسائر الظلال ، ولا دافع أذى الحر لمن يأوى إليه ، مترفين : أى منعمين مقبلين على لذات أنفسهم لايلوون على شىء مما جاء به الرسل، يصرون: أى يقيمون ولايقلعون، والحنث العظيم : أى الذنب العظيم وهو الشرك بالله وجعل الأوثان والأنداد أربابا من دون الله ، والميقات : ما وقت به الشىء والمراد به يوم القيامة ، وسمى به لأنه وقتت به الدنيا ، وشجر الزقوم : شجر ينبت فى أصل الجحيم ، والهيم : واحدها أهيم وهو الجمل الذى يُصيبه الهيام (بالضم) وهو داء يشبه الاستسقاء يصيب الإبل ، فتشرب حتى تموت أو تسقم سقما شديدا ، والنزل : ما يقدم للضيف إذا نزل ، ويوم الدين يوم الجزاء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر زوجين من الأزواج الثلاثة، وبين ما يلقاه كل منهم من عز مقيم، وشرف عظيم ، فى جنات ونعيم ، فى جملة شئونهم ، فى مآكلهم ومشاربهم وفرشهم

وأزواجهم ـ أردف ذلك بذكر الزوج الثالث ، و بين ما يلقاه من النكال والوبال وسوء الحال ، فهو يتظلى فى السموم و يشرب ماء كالمهل يشوى الوجوه ، ثم أعقبه بذكر السبب فى هذا ، بأنهم كانوا فى دنياهم مترفين غارقين فى ذنوبهم ، منكرين هذا اليوم يوم الجزاء ؛ ثم أمره أن يخبرهم بأن هذا اليوم واقع حتما وأن مأكلهم سيكون من شجر الزقوم يملئون منه بطونهم ، ثم يشربون ولا يرتوون كالإبل الهيم ، وهذا ما أعد لهم من كرم وحسن وفادة فى هذا اليوم .

الإيضاح

(وأصحاب الشمال ، ما أصحاب الشمال) أى أصحاب الشمال فى حال لا يستطاع وصفها ولا يقدر قدرها من نكال ووبال ، وسوء منقلب .

ثم فسر هذا المبهم بقوله :

(فى سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم) أى هم فى حر ينفذ فى المسام ، وماء متناه فى الحرارة ، وظل من دخان أسود ، ليس بطيب الهبوب ، ولا حسن المنظر ، لأنه دخان من سعير جهنم يؤلم من يستظل به .

قال ابن جرير : العرب تتبع هذه اللفظة (الكريم) فى النفى فيقولون هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم ، وهذا اللحم ليس بسمين ولا كريم ، وهذه الدار ليست بواسعة ولا كريمة اه .

وذكر السموم والحميم ولم يذكر النار ، إشارة بالأدنى إلى الأعلى ، فإن هواءهم إذا كان سموما ، وماءهم الذى يستغيثون به حميما ، مع أن الهواء والماء من أبرد الأشياء وأنفعها ، فما ظنك بنارهم ، فكأنه قال : إن أبرد الأشياء لديهم أحرها ، فما بالك بحالهم مع أحرّها ؟.

ونحو الآية قوله تعالى : « انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ . انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ . لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ . إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ . كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » .

والخلاصة — إن السموم تضربهم فيعطشون ، وتلتهم تارة أحشاءهم فيشربون الماء فيُقَطِّع أمعاءهم ، ويريدون الاستظلال بظل فيكون ظل اليحموم .

ثم ذكر السبب فى تعذيبهم فقال :

(إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرّون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون ؟) أى إنهم كانوا فى الدنيا منعمين بألوان من المآكل والمشارب والمساكن الطيبة والمقامات الكريمة ، منهمكين فى الشهوات ، فلا جرم عذبوا بنقائضها ، إلى أنهم كانوا ينكرون هذا اليوم ويقولون : أنبعث نحن وآباؤنا الأولون ونعود كرّة أخرى وقد صرنا أجسادا بالية ، وعظاما نخرة ؟ .

والخلاصة — إنهم كانوا يتمتعون بوافر النعم وجزيل المنن ، وهم مع ذلك أصروا على كفرانهم ولم يشكروا أنعم الله عليهم ، فاستحقوا عقاب ربهم ، وكانوا مكذبين بهذا اليوم ، مستبعدين وقوعه ، وركبوا رءوسهم فلم يلووا على شىء ، وهاموا فى أودية الضلالة ، وساروا فى سبيل الغواية ، لا رقيب ولا حسيب .

وقد جرت سنة القرآن أن يذكر أسباب العقاب ، ولا يذكر أسباب الثواب ، لأن الثواب فضل ، والعقاب عدل ، والفضل إن ذكر سببه أو لم يذكر لايتوهم فى المتفضل به نقص ولا ظلم ، أما العدل فإن لم يعلم سببه فربما يظن أن هذا ضرب من الظلم .

وقد ذكروا لاستبعاد هذا البعث أسبابا :

(١) الحياة بعد الموت .

(٢) طول العهد بعد الموت حتى صارت اللحوم ترابا والعظام رفاتا .

(٣) بلغ الأمر منهم أن قالوا متعجبين : أو يبعث آباؤنا الأولون ؟

فرد الله عليهم كل هذا وأمر رسوله أن يجيبهم .

(قل إن الأولين والآخرين . لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) أى أجبهم قائلا لهم : إن الأولين الذين تستبعدون بعثهم أشد الاستبعاد ، والآخرين الذين تظنون أن لن يبعثوا ـ ليجمعون فى صعيد واحد فى ذلك اليوم المعلوم ، ولا شك أن اجتماع عدد لايحصى كثرة أعجب من البعث نفسه .

ونحو الآية قوله فى سورة الصافات : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » .

ثم بين ما يلقاه أولئك المكذبون من الجزاء فى مآكلهم ومشاربهم فقال :

(ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم . فمالئون منها البطون. فشاربون عليه من الحميم. فشاربون شرب الهيم) أى أيها الذين ضللتم أولا فأصررتم على الذنب العظيم ، إذ لم توحدوا الله ولم تفعلوا ما يوجب تعظيمه ، ثم كذبتم رسله فأنكرتم البعث والجزاء فى هذا اليوم ـ إنكم لآكلون من شجر الزقوم فمالئون منها بطونكم ، فشاربون بعد ذلك من ماء حارّ لغلبة العطش عليكم ، ولكنه شرب لايشفى الغليل ، ومن ثم تشربون ولا ترتوون ، فكأنكم الإبل التى أصيبت بداء الهيام ، فلا يروى لها الماء غليلا .

وخلاصة ذلك — إنه لزيادة العذاب لاترتوون من شرب هذا الماء المتن الحار فلا تمسكوا عنه ، بل يكون شربكم كشرب الإبل التى تشرب ولا تروى .

ثم بين أنه ليس هذا كل العذاب بل هو أوله وقطعة منه فقال :

(هذا نزلهم يوم الدين) أى هذا الزقوم المأكول ، والحميم المشروب ، أول الضيافة التى تقدم لهم كما يقدم للنازل مما حضر ، فما بالك بهم بعد ما يستقر بهم المقام فى النار .

ولا يخفى ما فى هذا من التهكم بهم ، والتوبيخ لهم كما قال :

وكنّا إذا الجبّار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نُزْلا

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنْتُمْ
تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ
بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١)
وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ
(٦٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا
فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)
أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ
الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ
النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢)
نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)

شرح المفردات

تمنون : أي تقذفونه في الأرحام من النطف ، تخلقونه أي تقدرونه وتصورونه بشرا سويا تام الخلقة ، قدرنا : أي قسمنا ووقتنا موت كل أحد بوقت ، نبدل أمثالكم : أي نميتكم دفعة واحدة ونخلق أشباهكم ، فيما لا تعلمون : أي من الخلق والأطوار التي لا تعهدونها ، فلولا تذكرون : أي فهلا تتذكرون ذلك ، تحرثون : أي تبذرون حبه وتعملون في أرضه ، تزرعونه : أي تنبتونه وتجعلونه نباتا يرف ، حطاما : أي هشيما متكسرا متفتتا لشدة يبسه بعد ما أنبتناه ، تفكهون: أي تتعجبون من سوء حاله ، مغرمون : أي معذبون مهلكون من الغرام وهو الهلاك قال :

إن يعذب يكن غراما وإن يُقْسِطْ جزيلا فإنه لا يبالي

محرومون : أى غير مجدودين ، فليس لنا جَدّ وحظ ، المزن : السحاب واحدته مزنة ، أجاجا : أى ملحا زعاقا مرا لا يصلح لشرب ولا لزرع ، لولا : بمعنى هلا ، وهى كلمة تفيد الحث على فعل ما بعدها ، تورون : أى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ، تذكرة : تذكيرا بالبعث ، ومتاعا : أى منفعة ، للمقوين : أى للمسافرين الذين يسكنون القواء : أى القفر والمفاوز ، فسبح : أى تعجب من أمرهم ، وقل : سبحان الله العظيم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأزواج الثلاثة ، وبين مآل كل منها وفصل ما يلقاه السابقون وأصحاب الميمنة من نعيم مقيم ، وذكر ما يلقاه أصحاب المشأمة من عذاب لازب فى حميم وغساق ، وذكر أن ذلك إنما نالهم لأنهم أشركوا بربهم وعبدوا معه غيره وكذبوا رسله ، وأنكروا البعث والجزاء ـ أردف ذلك بإقامة الأدلة على الألوهية من خلق ورزق لطعام وشراب ، وأقام الدليل على البعث والجزاء ، ثم أثبت الأصل الثالث وهو النبوة فيما بعد .

الإيضاح

(نحن خلقناكم فلولا تصدقون) أى نحن بدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا ، أفليس الذى قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى ؟ فهلا تصدقون بالبعث .

وفى هذا تقرير للمعاد ، ورد على المكذبين به ، المستبعدين له من أهل الزيغ والإلحاد الذين قالوا : « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ » .

ثم أعاد الدليل فقال :

(أفرأيتم ما تمنون ، ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟) أى أخبرونى عما قذفتم به فى الأرحام من النطف : ءأنتم تقدرونه بشرا سويا تام الخلق أم الله الخالق لذلك ؟ .

ولا شك أنهم لايجدون إلا جوابا واحدا لا ثانى له .

والخلاصة — أخبرونى أيها المنكرون قدرة الله على إحيائكم بعد مماتكم — عن النطف التى تمنون فى أرحام نسائكم ، ءأنتم تخلقونها أم نحن الخالقون لها ؟ .

(نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون) أى نحن قسمنا الموت بينكم ، ووقتنا موت كل واحد بميقات معين لايعدوه بحسب ما اقتضته مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة ، وما نحن بعاجزين عن أن نذهبكم ونأتى بأشباهكم من الخلق ، وننشئكم فيما لاتعلمون من الأطوار والأحوال التى لاتعهدونها .

والخلاصة — نحن قدرنا بينكم الموت لأن نبدل منكم أمثالكم بعد مهلككم ، ونجىء بآخرين من جنسكم ، فنحن نميت طائفة ونبدلها بطائفة أخرى قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل .

ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال :

(ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) أى لقد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة وهى البداية قادر على النشأة الأخرى وهى الإعادة بطريق الأولى كما قال : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وقال : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ؟ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ؟ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى » .

وفى الحديث « عجبا كل العجب المكذب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبا للمصدق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور » .

ثم أردف ذلك بدليل آخر فى الرزق فى المطعوم فقال :

(أفرأيتم ماتحرثون . ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) أى أخبرونى عن الحرث الذى تحرثونه ، ءأنتم تنبتونه أم نحن الذين ننبته ؟ أى ءأنتم تصيرونه زرعا أم نحن الذين نصيّره كذلك ؟.

وروى عن حُجْر المنذرى أنه كان إذا قرأ (ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) وأمثالها يقول : بل أنت يارب .

(لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون) أى نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا ، وأبقيناه لكم ، ولو شئنا لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده ، فأصبح لاينتفع به فى مطعم ولا فى غذاء ، فصرتم تعجبون من سوء حاله إثر ماشاهدتم فيه من الخضرة والنضرة والبهجة والرُّواء ، وتقولون : حقا إنا لمعذبون مهلكون لهلاك أرزاقنا ، لا بل هـــذا أمر قدر علينا لنحس طالعنا ، وسوء حظنا .

والخلاصة — لو نشاء لجعلناه هشيما متكسرا لشدة يبسه ، فأنتم تعجبون مما نزل بكم ، ويعجّب بعضكم بعضا لذلك وتقولون إنا لمعذبون ، لا بل نحن محرومون غير مجدودين لنحس طالعنا وسوء حظنا .

ثم أعقبه بدليل آخر فى المشروب فقال :

(أفرأيتم الماء الذى تشربون . ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) أى أفرأيتم أيها الناس الماء العذب الذى تشربونه ، ءأنتم أنزلتموه من السحاب الذى فوقكم إلى قرار الأرض أم نحن منزلوه لكم ؟

(لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون) أى لو نشاء لجعلناه ملحا زعاقا لاتنتفعون به فى شرب ولا غرس ولا زرع ، فهلا تشكرون ربكم على إنزاله المطر عذبا زلالا ؟ «لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

أخرج ابن أبى حاتم عن أبى جعفر رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا شرب الماء قال : الحمد لله الذى سقانا عذبا فراتا برحمته ، ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا » .

(أفرأيتم النار التى تورون . ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) أى أفرأيتم النار التى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ، ءأنتم أنشأتم شجرتها التى منها الزناد أم نحن المنشئون لها بقدرتنا ؟.

وكانت العرب توقد النار بطريق احتكاك المرخ بالعفار (نوعان من الشجر) فيأتون بعود من العفار و بقطعة عريضة من المرخ يحفرون فى وسطها حفرة ثم يضعون عود العفار فى هـذه الفجوة ، و يأتى فتى من فتيان القبيلة و يحرك عود العفار فيها بالتوالى ، و يأتى بعده آخر و يصنع صنيع سابقه ، ولا يزالون يفعلون هكذا حتى تشتعل النار من كثرة الاحتكاك .

وهذه عملية شاقة عسرة ، ومن ثم كان كل بيت فى القبيلة إذا رأى النار موقدة ستعار جذوة منها ، و إلى هذا أشار قوله سبحانه فى قصص موسى « إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » .

ثم بين منافع هذه النار فقال :

(نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) أى نحن جعلنا النار تبصرة فى أمر البعث حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها ، و يذكروا بها ما أوعدوا به .

لأن من أخرج النار من الشجر الأخضر المضادّ لها فهو قادر على إعادة ماتفرقت مواده ، ومنفعة لمن ينزلون القواء والمفاوز من المسافرين ، فكم من قوم سافروا ثم أرملوا فأججوا نارا فاستدفئوا وانتفعوا بها ؛ وقد كان من لطف الله أن أودعها الأحجار ، وخالص الحديد ، فيتمكن المسافر من حمل ذلك فى متاعه و بين ثيابه ، و إذا احتاج إلى ذلك فى منزله أخرج زنده وأورى وأوقد نارا فطبخ بها واصطلى ، واشتوى واستأنس بها ، وانتفع بها فى وجوه المنافع المختلفة .

وفى الحديث « المسلمون شركاء فى ثلاثة : النار والكلإ والماء » .

وقد يكون المعنى : وجعلناها تذكرة وأنموذجا من نار جهنم لما فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ناركم هذه التى توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم » .

(فسبح باسم ربك العظيم) الذى خلق هذه الأشياء بقدرته ، فخلق الماء العذب البارد ، ولو شاء لجعله ملحا كالبحار والمحيطات ، وخلق النار وجعل فيها منافع للناس فى معايشهم ، وجعلها تبصرة لهم فى معادهم .

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) .

شرح المفردات

لاأقسم : هذا قسم تستعمله العرب فى كلامها ، ولا مزيدة للتأكيد مثلها فى قوله: « لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ » ، ومواقع النجوم : مساقط كواكب السماء ومغاربها ، مكنون : أى مصون عن التغيير والتبديل ، المطهرون : أى المنزهون عن دنس الحظوظ النفسية ، مدهنون : أى متهاونون كمن يدهن فى الأمر : أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على الألوهية والبعث والجزاء — أعقب هذا بذكر الأدلة على النبوة وصدق القرآن الكريم ، وأقسم على هذا بما يرونه فى مشاهداتهم من

مساقط النجوم ، إنه لكتاب كريم لايمسه إلا المطهرون ، وأنه نزل من لدن حضرة القدس على يد جبريل عليه السلام ، فكيف تتهاونون فى اتباع أوامره والانتهاء عن نواهيه ، وتجعلون شكركم على هذا تكذيبكم بنعم الله وجزيل فضله عليكم .

الإيضاح

(فلا أقسم بمواقع النجوم) أى أقسم بمساقط النجوم ومغاربها ، وإنما خص القسم بهذه الحال ، لما فى غروبها من زوال أثرها والدلالة على وجود مؤثر دائم ، ومن ثم استدل إبراهيم عليه السلام بالأفول على وجود الإله جلت قدرته .

وقد أقسم سبحانه بكثير من مخلوقاته العظيمة ، دلالة على عظم مبدعها ، فأقسم بالشمس والقمر ، والليل والنهار ، ويوم القيامة ، والتين والزيتون ؛ كما أقسم بالأمكنة فأقسم بطور سينين ومكة المكرمة .

ويرى أبو مسلم الأصفهانى وشِرْذِمةٌ من المفسرين : أنّ لا ليست مزيدة والكلام على ظاهره المتبادر منه ؛ والمعنى : لاأقسم : إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم ما ، فضلا عن هذا القسم العظيم .

(وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) أى وإن هذا القسم عظيم لو تعلمون ذلك .

وفى هذا تفخيم للمقسم به ، لما فيه من الدلالة على عظيم القدرة ، وكمال الحكمة وفرط الرحمة ، ومن مقتضيات رحمته ، ألا يترك عباده سدى .

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال :

(إنه لقرآن كريم) أى إن هذا القرآن جم المنافع ، كثير الفوائد ، فقد اشتمل على مافيه صلاح البشر فى دنياهم وآخرتهم .

قال الأزهرى : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والقرآن كريم يحمد ، لما فيه من الهدى والبينات ، والعلم والحكمة ، فالفقيه يستدل به ويأخذ منه ، والحكيم

يستمد منه ويحتج به ، والأديب يستفيد منه ويتقوى به ، فكل عالم يطلب أصل علمه منه .

(فى كتاب مكنون) أى فى لوح محفوظ مصون عن غير المقربين من الملائكة الكرام .

(لا يمسه إلا المطهرون) أى لا يمس هذا اللوح إلا المنزهون عن دنس الأرجاس والحظوظ النفسية ؛ وقد يكون المراد : لا ينزل به إلا المطهرون وهم الملائكة الكرام، أو لا يمس هذا القرآن إلا المطهرون من الحدث الأصغر والحدث الأكبر ، والمراد بذلك النهى أى لا ينبغى أن يمس القرآن إلا من هو على طهارة .

أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر والحاكم عن عبد الرحمن بن زيد قال : كنا مع سلمان الفارسى فانطلق إلى حاجة فتوارى عنا ثم خرج إلينا ، فقلنا لو توضأت فسألناك عن أشياء من القرآن ، فقال : سلونى فإنى لست أمسه ، إنما يمسه المطهرون ، ثم تلا (لا يمسه إلا المطهرون) .

وذهب جمهور العلماء إلى منع المحدث عن مس المصحف ، وبذلك قال على وابن مسعود وسعد بن أبى وقاص وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعى .

وروى عن ابن عباس والشعبى فى جماعة منهم أبو حنيفة أنه يجوز للمحدث مسه ، يراجع شرح المنتقى للشوكانى .

وقال الحسين بن الفضل : المراد أنه لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق .

(تنزيل من رب العالمين) أى وهو منزل نجوما من لدن رب العالمين ، فليس بالسحر ولا الكهانة ولا الشعر ، وهو الحق الذى لا مرية فيه ، وليس وراءه شىء نافع .

وبعد أن بين مزاياه وأنه من لدن عليم خبير ذكر أنه لا ينبغى التهاون فى أوامره ونواهيه ، بل ينبغى التمسك به فقال :

(أفبهذا الحديث أنتم مدهنون) أى أفبهذا القرآن تتهاونون ، وتوافقون باللسان وأنتم مصرون على الخلاف ، فتارة تقولون إنه سحر ، وأخرى تقولون إنه كهانة ، وطورا تقولون إن البعث محال ، أفإذا متنا وكنا ترابا أئنا لمبعوثون ؟ إلى نحو هذا من أقاويلكم التى تدل على ماتكنه نفوسكم من التكذيب بالقرآن وبمن جاء به .

قال البقاعى : فهو على هذا إنكار على من سمع أحدا يتكلم فى القرآن بما لا يليق به ، ثم لا يجاهره بالعداوة .

وابن العربى الطائى صاحب الفصوص ، وابن الفارض صاحب التائية أول من ضربت إليهما هذه الآية ، فإنهما تكلما فى القرآن على وجه يبطل الدين أصلا ورأسا ويحله عروة عروة ، فهما من أضر الناس على هذا الدين ، ومن يتأول لهما أو يناضح عنهما أو يعتذر لهما أو يحسن الظن بهما مخالفا إجماع الأمة — فهو أعجب حالا منهما ، فإن مراده إبقاء كلامهما الذى لا أفسد للإسلام منه من غير أن يكون لابقائه مصلحة ما بوجه من الوجوه اهـ بتصرف .

(وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) أى وتجعلون الشكر على هذا أنكم تكذبون بمن منح هذا الرزق ، فتنسبونه إلى الأنواء وتقولون مُطرنا بنَوْء كذا ، دون أن تقولوا أفاض الله علينا الرزق من لدنه ، ومنحنا الفضل برحمته .

والخلاصة — إنكم تضعون الكذب مكان الشكر ، وهذا على نحو ماجاء فى قوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً » أى لم يكونوا يصلون ، لكنهم كانوا يصفرون ويصفقون مكان الصلاة .

قال القرطبى : وفى هذا بيان لأن مايصيب العباد من خير فلا ينبغى أن يروه من قبل الوسائط التى جرت العادة بأن تكون أسبابا ، بل ينبغى أن يروه من قبل الله تعالى ثم يقابلونه بالشكر إن كان نعمة وبالصبر إن كان مكروها ، تعبدا له وتذللا اهـ .

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) .

شرح المفردات

لولا : حرف يفيد الحث على حصول مابعده على سبيل الاستحسان أوالوجوب ، والحلقوم : مجرى الطعام ، ونحن أقرب إليه منكم : أى علما وقدرة ، مدينين : أى محاسبين مجزيين ، أو مملوكين مقهورين من قولهم دان السلطان الرعية إذا استذلهم واستعبدهم ، والروح : الاستراحة ، ريحان : أى رزق ، من المكذبين الضالين . هم أصحاب الشمال ، فنزل : أى فجزاؤه نزل ، وتصلية جحيم : أى إدخال فى النار ، حق اليقين : أى حق الخبر اليقين الذى لاشك فيه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جحودهم بآيات الله وتكذيبهم رسوله وكتابه ، وقولهم فيه : إنه سحر وافتراء ، واعتقادهم أن رزقهم من الأنواء — أردف ذلك بتوبيخهم على مايعتقدون ، فإنه إذا كان لابد للفعل من فاعل ، وقد جحدتم الله وكذبتم رسوله فالفاعل لهذا كله أنتم ، لأن الخالق إما الله و إما أنتم ، فإذا نفيتم الله فأنتم الخالقون ،

وإذا فلماذا لاترجعون الروح لميتكم وهو يعالج سكرات الموت ، فإن كنتم صادقين فارجعوها ، الحق أنكم لاتعقلون الدليل والبرهان ، بل لاتفهمون إلا المحسوسات ، فلمَّا لم تروا الفاعل كذبتم به ، وهذا من شيمة الجهال ، إذ للعلم وسائل عديدة ، فليس عدم رؤية الشيء دليلا على عدم وجوده .

ثم بين حال المتوفى ، ومن أىِّ الأزواج الثلاثة هو ، فإن كان من السابقين فله روح واطمئنان نفس ، علما منه بما سيلقاه من الجزاء ، ورزق طيب فى جنات النعيم فيرى فيها ماتلذ الأنفس ، وتقرّ به الأعين ، وإن كان من أصحاب اليمين فتسلم عليه الملائكة ، وتعطيه أمانا من ربه ، وإن كان من أصحاب الشمال فضيافته ماء حميم وعذاب فى النار أبدا .

ثم بين أن الخبر الذى أُخْبِر به هو الحق اليقين ، وعليك أن تنزه ربك العظيم عن كل ما لايليق به .

الإيضاح

(فلولا إذا بلغت الحلقوم. وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون) أى فهلا إذا بلغت النفوس عند خروجها من أجساد موتا كم حلاقيمهم وأنتم ومن حضركم من أهليكم تنظرون إليهم ، ورسلنا الذين يقبضون أرواحهم أقرب إليهم منكم ولكن لاتبصرون — وجواب لولا هو ماسيأتى بعد وهو (ترجعونها) .

وخلاصة المعنى — إذا لم يكن لكم خالق وأنتم الخالقون ، فهلا ترجعون النفوس إلى أجسادها حين خروجها من حلاقيمها ؟

ثم كرر التحضيض مرة أخرى فقال :

(فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين) أى فهلا ترجعون هذه النفس التى قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ، ومقرها من الجسد ، إن كنتم غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون .

وبعد أن ذكر حال المحتضرين أردفها بذكر حالهم بعد الوفاة وقسمها أزواجا ثلاثة فقال :

(١) (فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم) أى فإن كان المتوفى من الذين قرّبهم ربهم من جواره فى جناته ، لفعله ما أمر به ، وتركه ما نهى عنه ، فراحة واطمئنان لنفسه ، ورزق واسع من عنده ، وتبشره الملائكة بجنات النعيم ، وقد جاء فى حديث البَرَاء بن عازب : « إن ملائكة الرحمة تقول : أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب ، كنت تعمرينه ، فاخرجى إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان » .

(٢) (وأما إن كان من أصحاب اليمين . فسلام لك من أصحاب اليمين) أى فإن كان المتوفى من أصحاب اليمين فتبشره الملائكة وتقول له : لا بأس عليك . أنت إلى سلامة . أنت من أصحاب اليمين .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ » .

(٣) (وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم) أى وإن كان المتوفى من المكذبين بالحق ، الضالين عن الهدى ، فيقدم ضيافة له ماء حميم يصهر به ما فى بطنه والجلود ، ويُدخل فى النار التى تغمره من جميع جهاته .

(إن هذا لهو حق اليقين) أى إن هذا الذى ذكر فى هذه السورة من أمر البعث الذى كذبوا به ، ومن قيام الأدلة عليه ، ومن حال المقربين وأصحاب اليمين ، وحال المكذبين الضالين — لهو حق الخبر اليقين الذى لا شك فيه ، لتظاهر الأدلة القاطعة عليه ، كأنه مشاهد رأى العين .

(فسبح باسم ربك العظيم) أى فبعد أن استبان لك الحق ، وظهر لك اليقين ، فنزه ربك عما لا يليق به ، مما ينسبه الكفار إليه ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه عن عقبة بن عامر الجهنى قال : « لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » قال اجعلوها فى ركوعكم ولما نزلت « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » قال : اجعلوها فى سجودكم » .

والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

خلاصة موضوعات هذه السورة

(١) اضطراب الأرض وتفتت الجبال حين قيام الساعة .

(٢) إن الناس عند الحساب أزواج ثلاثة وذكر مآل كل زوج منها .

(٣) اجتماع الأولين والآخرين فى هذا اليوم .

(٤) إقامة الأدلة على وجود الخالق .

(٥) إقامة البرهانات على البعث والنشور والحساب .

(٦) إثبات أن هذه الأخبار حق لاشك فيها .

(٧) تبكيت المكذبين على إنكار الخالق .